في الأدب المقارن

التـــــــاريخ

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ نخرى أبو السعود

التاريخ قصة الانسانية وحكاية ماضيها ، يصف حياة الانسان من قديم عهوده ، وتقلب أحواله على مرور العصور ، وكفاحه في سبيل التقدم والسعادة ، ويعرض أعمال الأمم وعظائم الأفراد وتعاون الشعوب حينا وتعاديها أحيانا ، ويشرح سريان الحضارة والثقافة من صقع إلى صقع ، ومن جيل إلى جيل ، ومن أمة إلى أخرى ، وما أضافته إليهما عبقرية كل شعب ، من مستحدثات العلوم والفنون والصناعات ؛ فالتاريخ سجل ملىء بالعظات والدروس ، حافل بالمنعات والطرائف ، يمتع اللب بسياقه القصصي ، وينبه الخيال بعده الزمني ، ويملأ النفس أحيانا بالفخار الوطني ، ويثقف الانسان في حاضره ويبصره بما بين يديه ، حين يعرض عليه أنباء الماضي ووقائعه

ولا يستمد التاريخ مما دونه المؤرخون في طروسهم فقط ، بل يستمد بجانب ذلك من آثار الفنون المتخلفة عن الأمم ، من عمارة ونحت وتصوير وأدب ، ففي كل هاتيك صور من عقلياتها ومذاهبها ومجتمعاتها ومنازعها ؛ فتاريخ الحضارة المصرية القديمة لا يستمد إلا أقله مما دونه المصريون أنفسهم أو من جاء بعد عهدهم من مؤرخي الأمم التالية ، أما أكثر ما يعرف عن حياتهم الاجتماعية وتقاليدهم وديانتهم وعلومهم ، فمستق من مخلفاتهم في عالم البناء والنحت والنقش والصناعة ، وقل مثل ذلك في تاريخ اليونان والرومان ، وغيرهم من الأمم التي أنشأت الحضارات وكان لها في العلم والفن شأن يذكر

فتاريخ الأمة وفنونها متصلان أوثق اتصال ، فالعوامل النفسية التي تسيطر على المجتمع والحكومة وتؤدي إلى الأحداث والتطورات السياسية والاقتصادية ، هي هي العوامل النفسية التي تسيطر على فنون الأمة ، فيميل أبناؤها إلى فنون دون أخرى ، وينحون بفنونهم انحاء خاصة دون غيرها ؛ فقدماء المصريين الذين كانوا يخضعون لملكية مطلقة دينية الصبغة ويؤلهون ملوكهم ، نبغوا في عالم العمارة في بناء المعابد والمقابر دون القصور ، ونحتوا التماثيل للملوك والآلهة ، لا للأبطال والزعماء والخطباء والرياضيين كما فعل الاغريق ، ولم يرتق فيهم الأدب الذي يترجم عن مشاعر الفرد ، ويعبر عن خوالج المجتمع

والأدب أشد الفنون اتصالا بتاريخ الأمة وارتباطا بتطورات المجتمع ، إذ كان صدى ناطقاً دقيقاً لما يحس به الفرد والمجتمع ، بل الأدب مصاحب في بدئه للتاريخ في ظهوره ، يتمازجان لدى الجماعات البدائية في محاولتها تفسير ظواهر الكون والتغني بمفاخر أسلافها ، ويشاب كل ذلك بالخرافات ، ويظل الأدب والتاريخ مختلطين على ذلك النحو مادامت الأمة في عهد بداوتها ، فاذا ماتحضرت ودونت الكتب بدأت العلوم تتفرق وتتميز ويستقل كل منها بنفسه ، فظهر المؤرخون واستقلوا بأمرهم عن الأدباء ، بيد أن الصلات بين الأدب والتاريخ تظل محكمة ، إذ كان كل منها مرآة للمجتمع تعكس صورته من زاوية مختلفة

فالأديب لا غنى له عن درس تاريخ الماضين والتبصر في تاريخ عصره ، كي يثقف عقله ويخصف فكره لأحوال البشر ، والمؤرخ لا غنى له عن النظر في كتب الأدباء ليفهم روح العصر الذي يؤرخ له ومثله العليا ، ولا غنى له إذا أراد أن يجيء تاريخه كاملا عن أن يفرد جانباً منه لدرس الحياة الأدبية لذلك العصر ، والمؤرخ للأدب لا ندوحة له عن درس التاريخ السياسي للعصور الأدبية ، والبيئات السياسية والاجتماعية التي عاش فيها الأدباء الذين يترجم لهم ؛ وقد كان من عظماء اليونان والرومان أمثال ديموستين وتيوسيديد وقيصر وشيشرون من جمعوا بين البلاغة الأدبية والتأليف التاريخي ، أو بين حرفة الأدب وحرفة السياسة وصنعة الحرب

إذا ما بلغت الأمة طور الحضارة والاستقرار والثقافة ، ودخل الأدب في طوره الفني ، تميز التاريخ وقام علما مستقلا بنفسه كما تقدم والتفت إليه الأدباء فوجدوا به مجالا لفنهم رحباً ومرتعاً لابتكارهم خصباً ، فهم لا يكتفون باستيعاب حقائقه واجتناء فوائده ، بل يتخذون من مشاهده وأحداثه ورجاله مادة وغذاء لأقلامهم ، ومسارح لخيالهم ومنادح لبيان آرائهم في الانسان والحياة ، وشواهد لتدعيم حججهم في المذاهب والمشاكل ، فيتخذ منه الشعراء موضوعات لقصيدهم ، والقصصيون هياكل لقصصهم ، ويجدون في عوالمه البعيدة وحوادثه القريبة وعظائه النابهين ، مهربا للنفوس من عقال الحاضر القريب ، وأحداثه العادية

كان الشعر في الجاهلية ديوان العرب لأنه - هو والقصص - كانا يحويان أخبار العرب ، ويحفظان مشهور حوادثهم وأيامهم ،

ويحكيان أخبار رحلاتهم واستقرارهم ، ويشيران إلى ماوراء ذلك من عوامل اقتصادية واجتماعية وعصبية ، فلم يكن العرب إذ ذاك يعرفون من التاريخ إلا حفظ الأنساب ، فلما تحضروا واستقروا فى المدن تضاءل شأن النسابة وظهر التاريخ المدون ، ظهر أولا لغرض عملى شأن كل العلوم والفنون ، لحفظ أخبار الفتوح وسيرة النبى الكريم وصحابته وتفسير بعض آيات الذكر الحكيم ، وارتقى التاريخ شيئاً فشيئاً وصارت له أغراض غير هذه وتناول موضوعات أخرى أرحب وأعم

بيد أن التاريخ لدى العرب — كالأدب — ترعرع فى ظل الملكية المطلقة ، فجاء كلاهما مشتملا على نفس النقائص : احتفى كلاهما بأمر الملوك وأغفل جانب الشعوب ، واهتم بالأحداث السياسية والحروب وتجاهل التطورات الاجتماعية والاقتصادية ، واتسم كلاهما بالمحافظة والتقليد والنقل فى غير نقد ، لأن وطأة الملكية كانت تضطر كلا منهما إلى الاطراق والاغضاء والتغافل عن مواطن الضعف ودواعى الاصلاح ، وكما كان الشعراء يقرضون الشعر ليتقدموا به إلى الأمراء متزلفين ، فيملأونه بالمدح المغالى فيه ، كان بعض المؤرخين يصنفون أسفارهم ليرفعوها إلى بعض الخلائف والسلاطين بغية الثواب والحظوة ، فيملأونها بمدحه ومدح أسرته وتعداد مآثره ومفاخر دولته ، ويؤيدون دعواه وينحون على عداه ، ويتغاضون عما عدا ذلك

وقد ظل الاتصال قائما بين الأدب والتاريخ بعد تدوين الكتب واستقلال علم التاريخ بنفسه ، فظلت كتب الأدب تحوى كثيراً من أخبار الجاهلية والاسلام ، بل كانت تلك السير والأخبار والشذرات والنوادر من أهم مواد كتب الأدب العربى ، ووردت فى أشعار الشعراء شتى الاشارات إلى أحداث الماضى ورجاله ، كما أن المؤرخين وكتاب التراجم والمعاجم كثيراً ما كانوا يلجأون إلى الشعر مستشهدين لما هم بصدده من تحقيق حادثة ، أو تصويب رواية ؛ وكان بعضهم يعيرون الشعراء اهتمامهم فيترجمون حياتهم ترجمة موجزة ، وكان بعض الشعراء ينظم فى أحداث جيله ، كما فعل ابن الرومى فى ثورة الزنج وفى مقتل بعض العلويين الخارجين . وكان كتاب الأمراء يتناولون مسائل السياسة فى رسائلهم ، فيندرج أشعار أولئك وكتابات هؤلاء فى تراث التاريخ اندماجها فى كنوز الأدب

بيد أن الأدب العربى الذى أغفل كثيرا من موضوعات القول التى يتهافت عليها الأدب إذا مابلغ طوره الفنى ، أهمل التاريخ إهمالا كبيرا ، فلم يتخذ من حوادثه وحيا للنظم ، ولا من أعاجيبه مدارا للقصص ، ولا من أبطاله أمثلة للتمجيد ، فليس من بين أدباء العربية الكبار من استهزه حادث تاريخى قرأه ، أو أثر تاريخى وقف به ، إلى نظم قصيدة أو إنشاء رسالة يستجلى فيها عبر التاريخ ويمجد قوة الانسان ، أو يندب ضعف حيلته إزاء جبروت المقادير . وليس من كتاب العربية ذوى الأساليب الجزلة من شمر عن ساعد الجد والبحث والاطلاع حتى كتب تاريخاً رفيعاً لبعض العصور أو الرجال ، تاريخاً يعد تحفة فى عالم الأدب كما قد يعد مرجعاً فى عالم التاريخ ، وإنما كان بعض الشعراء يتنصلون من الشؤون الاجتماعية والسياسية ، ويتبرؤن من الاشتغال بمسائل التاريخ ، كما قال ابن المعتز :

قليل هموم القلب إلا للذة ينعم نفسا آذنت بالتنقل
ولست تراه سائلا عن خليفة ولا قائلا : من يعزلون ؟ ومن يلى ؟
ولا صائحا كالعير فى يوم لذة يناظر فى تفضيل عثمان أو على

أما فى الانجليزية حيث كان الأدباء والمؤرخون كغيرهم من أفراد الشعب يشاركون فى الحياة الاجتماعية والسياسية بآرائهم ومذاهبهم ، بل بأعمالهم ومساعيهم ، فقد جاء كل من الأدب والتاريخ أكثر حرية وأقرب إلى جانب الشعب ، وأكثر طروقا لمواضيع المجتمع ومشاكل بنيه ، وجاء الاتصال بين الأدب والتاريخ شديد التوثق ، وجاء الأدب الانجليزى أحفل بآثار المجتمع الذى قيل فيه من الأدب العربى ، ومن ثم تدرس النصوص الأدبية الكثيرة فى أثناء دراسة التاريخ فى الجامعات ، فتدرس آثار ملتون مثلا عند دراسة عهد المطهرين فى انجلترا

ووجد أدباء الانجليزية فى التاريخ مجالا واسعاً لفنهم وابتداعهم ، فجال فيه شكسبير ومعاصروه جولات عديدة ، واتخذوا مشاهد رواياتهم فى بلاد اليونان أو إيطاليا أو دانيمركة أو انجلترة القديمة ، واشتق ملتون ودريدن موضوعات كثيرة من قصيدهم من تاريخ اليهود وأبناء ملوكهم وأنبيائهم . فلما ظهر النثر الفنى بجوار الشعر لم يغفل التاريخ ولم يكن أقل لموضوعاته طرقا من الشعر ، بل كان أحرى أن يشتمل على حقائقه ودقائقه ويعالج مسالكه ودروبه . بما يمتاز به على الشعر من رحب جوانبه ودقة تعبيره ، فعالج جيبون وهيوم وآدم سميث وكارليل وغيرهم التاريخ والاجتماع وفلسفتيهما فى أسلوب أدبى شائق ، وجمع بعض الادباء أمثال ماكولى وأرنولد بين الكتابة فى الأدب والتأليف فى التاريخ فكان الأدب والتاريخ لديهم كلا واحدا يجولون فى نواحيه

بلا تفريق ، وبقيت كتاباتهم يدرسها طلاب الأدب كما يدرسها باحثو التاريخ

بل بلغ غرام بعض الأدباء بالماضى ، وشغفهم بتقاليده وأزيائه ومحبتهم لأفذاده وعظمائه حداً بعيداً ، وقد كان سكوت من ذلك الضرب الذى يحيا فى الماضى وبجلائله ولآلائه وبطولته ، ولا يكاد يلتفت إلى الحاضر أو يعنى بالمستقبل ، وفى ذلك العالم السالف كتب سكوت أحسن قصصه . وممن كتب فى الروايات والقصص التاريخية أيضا تيسون وبرونتج ودرنكورتروشو ، وقد نرى موضوعاً تاريخياً حديثاً كالثورة الفرنسية ، وقد تناوله المؤلفون الانجليز من شتى النواحى ، فحلل لحوادث الثورة وشخصياتها ككارليل ، ومندد بمبادئها كبرك ، ومرحب بتلك المبادىء مترنم بها كوردزورث ، ومتخذ من قصة وليد تلك الثورة نابليون موضوعا لملحمة طويلة كهاردى ، وهكذا تحيا حوادث التاريخ فى أذهان مطالعى الأدب مصورة من شتى النواحى

ولا شك أن هذا التاريخ الأدبى ، إذا سميناه كذلك ، أجدر بالقراءة وأحق باهتمام المثقف من التاريخ المجرد ، إذ فى آثار الأدباء تحيا حقائق التاريخ وتدب فيها روح انسانية جديدة وتمتلىء بالإمتاع ، ويعود التاريخ والأدب وكلاهما مظهر لحياة الانسان المطردة التطور والتغير ، وتفكيره الدائب الحركة والتقلب ، وفى هذا التاريخ الأدبى يرتبط الحاضر بالماضى ، والقريب من الأمم بالبعيد ، وتتقاصر مسافات الزمان والمكان ، ولا يبقى إلا الانسانية الشاملة ، وهذه الانسانية هى مجال كل فن صميم

هذا التاريخ الأدبى لم يعرف فى العربية ، فكان هناك المؤرخون وكان هناك الأدباء ، ولكن كلا منهما كان مستقلا عن الآخر استقلالا كبيراً ، ولم يكن الادباء يعدون التاريخ مجالا من مجالات أدبهم ، أو مطمحا من مطامح فنهم ، يبتكرون فى مجاله وينشئون ، وما ذاك إلا لانشغالهم بالقريب الحاضر من شؤون العيش ، عن البعيد المتراءى من أمور الحياة وآفاق الفكر ، لأن الأدب ظل أكثره بلاطياً يمدح الأمير ويحرر رسائله ، وكان الفوز بتلك الحظوة مطمح الأديب ووسيلته الكبرى إلى الظهور فاذا ما بلغ ذلك المكان لازم ذلك الضرب الوحيد من القول ، ولم يصرف أدبه إلى التأمل فى شؤون الماضى والمستقبل ، وهكذا أغفل الأدب العربى التاريخ فيما أغفل من موضوعات هى صميم الفن ، لوثيق صلتها بالانسانية

فتحى ابو السعود

ضوء جديد على الدين الدرزى

الحياة والمعيشة الدرزية

للأستاذ محمد خالد ظاظا

يقول الأستاذ (عنان) إن كافة الرواة أجمعوا على أن الحاكم ذهب (ضحية المؤامرة والجريمة المدبرة) مع أن أنصار الحاكم ومؤيدى مذهبه يدعون أن الحاكم ارتفع إلى السماء امتحاناً للمؤمنين ولم يقتل أبداً ؛ وعن قريب سيعود من البلاد الصينية ومعه الجيوش الجرارة فيفتح هذه البلاد جميعها ويعيد الحالة إلى ما كانت عليه ؛ وسوف لا يبقى إلا الديانة الدرزية الحقة . لأنه بحكم الواقع تلغى جميع الأديان عند قدومه . وهؤلاء المؤمنون نزحوا من البلاد المصرية وقطنوا البلاد الشامية فى الجبال الشرقية منها ، وأسسوا مدناً وقرى اشتهر منها السويداء ومجدل شمس وبعقلين . وقد كانت لهم هذه الجبال معاقل تصد عنهم غارة الأمم الفاتحة حتى أصبح يخشى بأسهم وشدتهم ، ولم يختلطوا مع الأقوام السورية ، بل تجنبوهم حتى أنهم لبثوا ليومنا هذا محافظين على تقاليدهم وعاداتهم برغم تطور الزمان وانقلاب السلطان ، وبقيت هذه الديانة سراً مدفوناً إلى حين نشوب الثورة السورية فى عام سنة ١٩٢٦ فأذاعت من أسرارهم وديانتهم ما خفى طيلة هذه الأعوام الماضية . فالدروز ثاروا ودافعوا عن بلادهم وساهموا بقسط وافر من الوطنية ، واضطروا بحكم الشدة أن يتركوا بلادهم تفعل بها نيران القنابل والمدافع فعلها ، فلعبت الأيدى بكتبهم المقدسة وتراثهم المدفون وانتقلت هذه الكتب إلى أيدى الكثيرين .

وقد أكدلى أحد رجال الدروز العقل أن كتابهم المقدس الذى يسيرون بموجبه ويتبعون أثره هو خلاصة عدة كتب مقدسة ، أو بالأحرى خلاصة جميع الكتب الدينية ويزاد عليه بعض الحكم والنصائح . ويندر وجود هذا الكتاب عند كل درزى لأنه ينسخ ويخبأ عند رئيس الدين الأكبر